

إضاءات نقدية (فصلية محكمة)

السنة الرابعة - العدد الرابع عشر - صيف ١٣٩٣ش / حزيران ٢٠١٤م

صص ٨٧ - ١١٣

الطقوس البدائية والأنظمة الاجتماعية الأولى؛ قصة "العبد التاجر" في الباب الثاني من مرزبان نامه أُنموذجا

رودابه شاه حسيني *

الملخص

إن حكاية العبد التاجر الواردة في الباب الثاني من كتاب مرزبان نامه تحكي قصة عبد يمتحن التجارة عبر البحار بأمر من سيده ويتعرض في طريقة لأحداث مميتة يتمكن بدهائه من الخلاص منها لينال الملك في نهاية المطاف. إن هذا العبد يمثل من ناحية البعد الأسطوري لأدونيس وهو يرمز إلى إله الطبيعة الذي يختار الموت لأجل عباده لتتجدد بذلك الحياة؛ وهو من ناحية أخرى يرمز إلى بطل النظام الاجتماعي الأبعاد يغترب عن وطنه والذي ينال الملك في أرض غريبة.

الكلمات الدلالية: الملك، أدونيس، الروح النباتية، رب الغلات، الأبعادية في الزواج.

Roosha11@yahoo.com

*. أستاذة مساعدة بجامعة پیام نور، إيران.

التنقيح والمراجعة اللغوية: د. حسن شوندي

تاريخ القبول: ١٣٩٣/٥/٢٤ش

تاريخ الوصول: ١٣٩٢/١١/٢٣ش

المقدمة

إن الأسرار التي تتضمنها الأساطير في قوالبها القصصية شغلت الفكر البشرى طيلة التاريخ. إن ما يظهر في الأساطير هو عبارة عن الفكر البشرى وسلوكه في العهود البدائية في ما قبل التاريخ وعند وصول البشر إلى أعتاب بوابات التاريخ. تقوم هذه الدراسة بمعالجة إحدى الحكايات التمثيلية الواردة في الباب الثاني من كتاب مرزبان نامة تحت عنوان العبد التاجر لتقدم صورة واضحة عن المعتقدات والطقوس في الحياة الاجتماعية للبشر البدائيين والتي تحتفى في ثنايا هذه الحكاية مع إعادة النظر في رموزها لتقديم تفسير دقيق عنها. وتحاول الباحثة في هذه العجالة تتبع الفرضيات التالية:

- إن حكاية العبد التاجر وثيقة الصلة بأسطورة أدونيس وهي انعكاس للروح النباتية وربّ الغلات.
- إن حكاية العبد التاجر ذات نموذج يتبع نموذج النظام الاجتماعي المبني على الأباعدية في الزواج.
- تتضمن حكاية العبد التاجر رحلة في الزمان من عهد عبادة الأرواح إلى عهد التوحيد.

سوابق البحث وخلفياته

لقد أولى العلماء منذ أواخر القرن التاسع عشر الميلادي -بعد التطورات التي شهدتها العلوم وبخاصة علم النفس والانتروبولوجيا- موضوع أسلوب حياة الإنسان البدائي اهتماماً كبيراً مركزين على الأساطير بنظرة جديدة. كما لعب علماء من مثل مانهارد، وتيلور وفنت، وماكس مولير، ودوبوي، وفريزر، وفرويد، ويونغ... دوراً كبيراً على هذا الصعيد. وقد كان لكتاب "الغصن الذهبي" من تأليف فريزر الأثر البالغ والمهم في هذا المجال ويمكن اعتباره إلى جانب كتاب الطوطم والمحرمات لفرويد المحاولات الأولى في مثل هذه الدراسات. والجدير بالإشارة أن الأستاذ الفاضل الدكتور سيد محمد صاحبى قد نشر مقالاً في صفحتين تحت عنوان "انعكاس طقوس قتل الملك في مرزبان نامة" مستفيداً من كتاب الغصن الذهبي، حيث

أشار فيه إلى حكاية العبد التاجر. غير أن هذه الدراسة تحاول تسليط الضوء على جميع القضايا الموجودة في حكاية العبد التاجر بالإضافة إلى الموضوع الذي أشارت إليه الدراسة الآنفه الذكر. كما تحاول تفسير أحداثها تفسيراً يعتمد على تلك الطقوس لتعليل رموزها بعد معرفة النماذج القديمة الاجتماعية السائدة على أجوائها. ولم تعثر الباحثة على أى أثر بحثى آخر متصل بهذه الحكاية وسائر حكايات مرزبان نامه. وقبل اللوج إلى هيكل البحث أرى من الضروري توضيح مصطلح "الروح النباتية" الذى سيواجهه القارئ في ثنايا هذه الدراسة مرات عديدة.

إن المراد بالروح النباتية هو الرب الذى كان يمثل في معتقدات الإنسان البدائي الخصب والنمو. فهو عامل النمو والاختراع في النباتات والمدار الذى تدور عليه الطبيعة. وهو الإله الذى ترتبط حياته بحياة جميع الكائنات من البشر والحيوانات. إن مصطلح الروح النباتية يرادف في هذا المقال مصطلحات من قبيل: إله النمو وإله الغلات وإله الطبيعة وروح الغلات.

الحضارة والأساطير

تنشأ الحضارات وتزول بعد ذلك بزوال أو تغيير العوامل المؤدية إلى ظهورها غير أن زوال أية حضارة لا يعنى بالضرورة زوال جميع آثارها ومظاهرها حيث إنها تترك بصماتها الخفية والظاهرة. ويجوز التاريخ الكثير من الإشارات والدلالات الظاهرة عن الحضارات السابقة كما أن الدلالات الخفية لتلك الحضارات تظهر في الأقوال والآداب والأساطير عند مختلف الشعوب.

تتضمن الأساطير الكثير من المؤشرات الخاصة بالحضارات البشرية القديمة من مثل الدين والسياسة والتجارة والأخلاق والتقاليد والسنن و... في صورة الرموز، حيث يمكن للباحث أن يبيط اللثام عن رموز وأسرار الأساطير عبر معرفة التجليات الحضارية والثقافية القومية الزائلة والمنتثرة لدى الشعوب. وإن عملية معرفة الحضارات القديمة هذه تستخدم الأساطير ذاتها إلى جانب سائر القرائن من قبيل المعالم الأثرية لإعادة النظر في أمر تلك الحضارات وإن للعملية هذه اتجاهين اثنين دون أن تقع أسيرة

الحلقات المفرغة.

«إن القسم الأعظم من الأساطير يحتوى على معان عميقة كانت في أساسها ذات أبعاد حقيقية واجتماعية ثم انتقلت إلى أفواه الناس وعقولهم إثر الأعمال البطولية لبعض الأشخاص لتضاف عليها أشياء لاحقاً.» (رضى، ١٩٦١م: ٢/٧٠٥)

إن القطيعة التي تشهدها الأفكار البشرية اليوم عن جذورها الطقوسية والاعتقادية الماضية قد حوّلت إيمان الماضى إلى خرافات اليوم وجعلت سلوك القدماء مجهولة مفعمة بالأسرار، فما يبدو اليوم خرافة كان يظهر في عين القدامى الإيمان والصدق الحقيقيين. وما نعتبره اليوم رمزياً ومفعماً بالأسرار في الأساطير كان أسلوباً للحياة الاجتماعية للإنسان في يوم من الأيام. والتدقيق في المعتقدات وإعادة النظر في الحضارات لمعرفتها ولمعرفة أسلوب حياة البشر البدائيين من شأنه أن يكشف الأسرار عن الأساطير ليقود العقول الباحثة عن الحقيقة من الرموز إلى الحقيقة وإلى زمن لا يعدّ فيه العالم الأسطوري أسطورة بل هو عبارة عن نظام اجتماعى حقيقى حيث تتحول المعتقدات الخرافية فيه إلى الحقيقة المطلقة والإيمان الصادق.

عبادة الطبيعة وعبادة الأرواح

كانت الصلة وثيقة بين أسلوب حياة الإنسان القديم ومعتقداته ودينه وظروف بيئته. فقد اختار آلهته الأولى من بيئته وأسس أسلوب حياته وتعريفه عنها على ذلك الأساس «كانت الأساطير والأديان البدائية نتيجة الاختبارات الفكرية الأولى للبشر في محاولة منه لمعرفة الظواهر الطبيعية وتوضيحها. وهى نتيجة الخوف أو الحيرة الناجمين لدى الإنسان البدائي من التغيرات والتطورات في الظواهر الطبيعية. كانت آلهة الإنسان البدائي والظواهر الطبيعية وثيقتى الصلة فيما بينهما. فعلى سبيل المثال لم تكن آلهة اليونان سوى تصورات عن العناصر الطبيعية ومظاهرها.» (المصدر نفسه: ٢/٤٠٧) إن تأثير الطبيعة الكبير على مصير الإنسان الضعيف الحائر في الماضى قد دفعه إلى اعتبار عناصر الطبيعة آلهة وأرباباً. ولعل ذلك ما دفع لوكريتيوس الفيلسوف الرومانى يعتقد أن: «الخوف هو الأم الأولى للآلهة.» (ويل دورانت، ٢٠١٢م: ١/٧٢)

أضفى الإنسان عبر نزعه الأرواحية على كل عنصر من عناصر الطبيعة روحاً واعتبرها بين حين وآخر محور الكائنات وفضّلها على الآخرين بجعلها آلهة واقتربت مفاهيم عبادة الأرواح وعبادة الطبيعة في ذهنه وتحولت إلى مفاهيم مشتركة متقاربة.

عبادة الأرواح في حكاية "العبد التاجر"

إن التفسير الذي كان يقدمه الإنسان البدائي عن الآلهة الأولى "العناصر الطبيعية" تجلّى في جزء كبير من الأساطير وسيتسنى تفسير هذه الأساطير إذا ما تمت إعادة النظر في هذه التفاسير لمعرفتها بالكامل. إن حكاية "العبد التاجر" في كتاب مرزبان نامه تمثل العلاقة بين الروح النباتية ومبدأ الطبيعة وتفسير هذا المعتقد في الحضارات الزائلة والثقافات القديمة. بناء على هذا المعتقد فإن الحياة تنبى على محور مبدأ نباتى يدعى رب الغلات أو الروح النباتية. إنه الرب الذى يعتبر روحاً أو حياة لجميع النباتات ويمثل زواله أو حياته زوال الحياة أو استمراريتها وقد تبلور بمرور الزمن بصورة رمزية في أسطورة أدونيس.

الروح النباتية أو رب الغلات

«كانت الروح النباتية تمتاز بقدرتها السحرية على إخصاب الأشجار وإنبات المزارع والحقول لذلك يبدو أن حياته كانت غالية وعزوزه على عابديها وكانت هناك على الأرجح محاذير أو محرمات للحفاظ عليها.» (فريزر، ٢٠١٣م: ٣٣٢)

لا يستبعد أن يكون الاعتقاد بالمبدأ النباتى للحياة و"ربّ الغلات" مرتبطاً بفترة ارتبطت فيها حياة الإنسان بالزراعة والنباتات ارتباطاً وثيقاً. عندما كان زوال النباتات يمثل تهديداً حقيقياً لحياة الإنسان. كما يبدو أن مصدر هذا المعتقد كان على الأرجح المناطق المعتدلة جغرافياً التى تعتبر فيها تغيرات الفصول وتأثيراتها ملموسة جداً على الحياة. وعلى الرغم من تأثير هذه التغيرات على جميع عناصر الطبيعة مثل الحيوانات أيضاً إلا أن العقل الإنسانى توجه نحو النبات وتركزت ميزة الأرواحية لديه على النباتات والغلات وتصورات الرب في وجود النباتات، ذلك الربّ الذى يمثل الروح في النباتات ويعدّ سبباً لنموها بل هو السبب للحياة الطبيعية والحياة ككل. ولا

يخفى أن الأرواحية وهى من الأجزاء الأساسية للدين البدائي تعد الأساس الذى كان يجعل الإنسان البدائي يرى فى كل كائن حى روحاً أو رباً أو قوة مليئة بالأسرار. والذى يدعى روح الطبيعة أو رب الغلات وهو مبدأ الحياة ومحورها ومنبعها، وكان الإنسان البدائي يفسر الحياة ويعللها بناء على ذلك تفسيراً يعتمد نظاماً نباتياً. واستناداً إلى هذا التفسير فإن الطبيعة تموت فى كل شتاء وتولد من جديد فى فصل الربيع. إن ولادة الربيع تعنى ولادة الحياة التى تنبت معها النباتات أى أهم عامل للحياة. ويحتفى عامل الحياة هذا داخل "روح الطبيعة" التى تدعى "الروح النباتية" أو "رب الغلات".

الروح النباتية والسحر الهوميوباتي "سحر المحاكاة"

إذا نسيت الطبيعة الخصوبة والولادة ومات رب الغلات عند الشتاء وتأخر عن البعث فإن الحياة يدركها الفساد. وهنا يأتي دور الإنسان لأداء واجبه وهو التوسل عبر مناسك تضمن حياة النباتات وحياة الكون فى نهاية المطاف. «إن الإنسان بعد أن شبه المصدر نفسه بالنباتات حاول من خلال تنفيذ بعض الأعمال على المصدر نفسه إجبار الطبيعة على القيام بتلك الأعمال.» (رضى، ١٩٦١م: ٢/٥٣٢)

لذلك فإن على روح الغلات أن تموت كل عام بشكل رمزي وأن تحيا بعد موتها مرة أخرى لتذكر الطبيعة بأن لا تنسى هذا البعث. إن هذا التذكير الذى كان أحد أهم أدوات الإنسان البدائي العملية للتصرف فى الطبيعة والكون ليس إلا السحر "الهوميوباتيكي" أو "سحر المحاكاة".

«عندما صنع الإنسان البدائي المصدر نفسه عالماً مليئاً بالأرواح دون أن يعرف ماهيتها الحقيقية ونزعاتها حاول بعد ذلك استرضاءها وتستمددها فى شؤونه وبذلك أضيف على الأرواحية الخاصة بالأشياء التى هى أصل أصول الدين البدائي عامل آخر هو السحر.» (دورانت، ٢٠١٢م: ١/٧٨)

كان الإنسان البدائي يرى أن جميع نظام حياته يتبع مجموعة من الأسباب والمسببات ليس لها فى عقل الإنسان المعاصر وعلمه أى مكان ولا أى تبرير. إذ كان يتصرف بواسطة مجموعة من الأعمال السحرية فى هذه الأسباب والمسببات أو كان يقوم بتسريع

النتائج المترتبة على علاقات الأسباب والمسببات هذه. لقد كانت مجموعة أعماله هذه إما سلبية ومستمدة من المحرمات أو كانت إيجابية بقوة السحر.

«إن السحر هو النظام المزور لقانون الطبيعة كما أنه دليل الاتصال الخادع. إذا ما درسنا المبادئ الفكرية التي يبنى عليها السحر لوجدناها تنقسم إلى قسمين على الأرجح:

الأول: إن لكل شئ يصنع ما يماثله وبعبارة أخرى فإن كل مسبب يشبه السبب الذي صنعه. والثاني: هو أن الأشياء التي اتصلت فيما بينها سابقاً ستظل مؤثرة على بعضها بعض من بعيد حتى بعد انقطاع هذا الاتصال. ويدعى الأول قانون المماثلة والثاني هو قانون الاتصال أو قانون العدوى.

يستنتج الساحر من قانون المماثلة بأنه يمكنه إيجاد أى مسبب بمحاكاته وتقليده فقط ويستنتج من الثاني بأنه عندما يقوم بتصرف ما تجاه شئ مادي فإن ذلك سياترك أثراً مماثلاً على الشخص الذي كان على اتصال مع ذلك الشئ في يوم من الأيام. إن منطق الساحر هو الاستخدام الخاطي لتداعى المفاهيم إن السحر الهوميوباتيكي يحمل هذا الفهم الخاطي وهو أن الأشياء التي كانت على صلة ببعضها البعض في زمن ما ستظل على اتصال فيما بينها دوماً.» (فريزر، ٢٠١٣م: ٨٧-٨٨) إن السحر المبني على المماثلة يدعى سحر المحاكاة أو الهوميوباتيكي. فعندما يتم وخز هيكل دمية بالإبرة لإيذاء شخص معين وسلبه الراحة أو عندما يتم ربط خيط بعدة عقد لمنع حظ شخص معين من النهوض، فإن هذا السحر من هذا النوع ولكن السحر المبني على الاتصال هو ما يدعى السحر المعدى ويتم تنفيذه بطريقة أخرى ومثاله القيام بأعمال معينة على ظفر شخص أو شعره للتأثير عليه هو. كان الإنسان البدوى يتصور أن بلوغه لمراميه في الطبيعة يتطلب منه القيام بتمثيل ذلك الشئ على شكل المحاكاة "السحر الهوميوباتيكي" ليتكرر أصله بشكل طبيعي في الطبيعة «كان الإنسان البدائي عند الجفاف وشح المطر يقوم ببعض الأعمال التمثيلية الدالة على نزول المطر ظناً منه أن الطبيعة ستحاكيه ويبدأ المطر بالنزول. كما كان يظن أن جعل أوراق الأشجار والنباتات كزينة على جسده

سيجعل الأرض تخرج من حالة الجفاف وتبدأ بالحركة الربيعية والخصب والولادة. كما كان يفكر أن قتل الشتاء ودفنه سيؤدي إلى انقضاء فصل وحلول فصل آخر ويكون هو المساعد على ذلك.» (رضى، ١٩٦١م: ٣/٧٩٣) «إن زوال الحياة النباتية في الشتاء كان في رأى الإنسان البدائي عبارة عن فتور الروح النباتية ظناً منه أن هذه الروح قد أدركتها الشيوخوخة والبلى لذا فإن من واجبه أن يقوّيه ويمجده بقتله وإعادة ولادته في جسد أكثر حيوية وشباباً لذا فإن قتل مندوب "روح الغلات" في الربيع مع إحيائه في شكل إنسان أكثر حيوية وشباباً كان وسيلة لتقوية وتسريع وتيره نمو النباتات.» (فريزر، ٢٠١٣م: ٣٣٨)

الأرواح النباتية وحكاية العبد التاجر

في جانب من هذه الحكاية يتحول العبد إلى ملك ولكنه يدرك شيئاً فشيئاً بأنه سيقتل بعد عام فقد مرّ بأرض كان الناس فيها يختارون كل عام شخصاً غريباً للملك ثم يقتلون بعد مضي عام ليجدوا بعد ذلك خليفة له. إن قتل الملك وظهور خليفة له يرمزان إلى الطبيعة فإن هذا الملك يمثل في واقع الأمر ملك الطبيعة الذي يعتبر قتله واختيار خليفة له إشارة إلى انقضاء فصل وحلول فصل آخر محله.

إنه الروح النباتية أو ربّ الغلات الذي يموت ليبعث من جديد في جسد أكثر شباباً ونضارة. إن التحول التدريجي للأرواحية إلى عبادة الآباء والأجداد وتبلوره في وجود الإنسان قد خلق آلهة كما أن تدخلات مثل الإله هذا في جميع الشؤن الروحانية والاجتماعية قد تمكنت من إيجاد تقارب بين مفاهيم مثل الرب والإنسان والملك. كان الملك رباً يحكم الأرض وينظّم في الوقت ذاته نظام الطبيعة والكون. لقد كانت له سلطتان إحداهما دينية والأخرى سياسية. «إن فكرة الإنسان - الرب أو الإنسان المتمتع بقوة ربّانية تعود في الأساس إلى العهود التاريخية الأولى للدين حيث كان الرب والإنسان موجودين من طراز واحد. لقد كان لهذه الآلهة في بعض الأحيان استخدامات روحانية بحتة فقط وكانت تظهر في أحيان أخرى قدرة سياسية عظيمة فهي كانت في تلك الحالة لها وقائداً وملكاً في الوقت المصدر نفسه.» (المصدر نفسه: ١٣٢)

إن الروح النباتية أو رب الغلات قد احتفظ باشتركااته الربانية مع الإنسان وكان يتجسد في وجود الإنسان - الرب الذي هو الملك، إنه الملك وهو رب النمو وإن قدراته على اتصال مباشر مع قوى الطبيعة إن هذا التفسير النباتي الذي يعد أحد أهم نظريات فريزر يستطيع تحليل الماهية العامة لهذه الحكاية. وهنا لا بأس من إيراد بعض الحكاية ليتم تطبيق وتفسير تفاصيلها بناء على تفاصيل هذه النظرية وآراء سائر العلماء.

"نبذة عن حكاية العبد التاجر"

قيل إن تاجراً كان له عبدٌ ذكي وفطن، حسن الحظ ... قال له التاجر ذات يوم: أيها الغلام لو أبحرت مرة أخرى وعدت لأغنيتك من أموالى ... لقد شحن الخادم السفينة وركبها ... لقد بدأت الأعاصير بالهبوب من كل صوب وقلب السفينة ... وغرقت السفينة وجميع ما فيها في ورطة العدم لكنه وصل إلى سلحفاة بحرية وتعلق بها وركب على ظهرها حتى بلغ بها جزيرة وجد فيها بساتين كثيرين من النخيل ... سار عدة أيام وليالى حتى وصل إلى مدينة .. لقد وجد خلقاً كثيرين خارجين من المدينة ... كانت أصوات الطبول والمزامير قد دوت في آذان السماء ... تقدموا نحوه وحيوه وقبلوا الأرض أمامه كالعبيد ... وقالوا له جميعاً: أيها الملك أنت الملك ونحن جميعاً عبيدك. أنت تأمر ونحن ننفذ أوامرنا لينعم الملك والعرش بوجودك ... فجلس على العرش ... وأعطى كل شخص منصباً ... لقد اختار أحد المقربين منه ... وجعله متفوقاً على جميع أقرانه ... ودعاه يوماً ... وسأله ... أريدك أن تخبرني عن الحقيقة ... فقال له: أيها الملك اعلم أن أحداً يأتي من هذا الجانب في كل عام فيحضرونه كما أحضروك ... وعندما يحكم عاماً واحداً ... يأخذونه شاء أم أبى إلى ضاحية هذه المدينة حيث إن فيها بحراً هائلاً يحول بين المدينة والصحراء فيأخذونه إلى تلك الصحراء ويتركونه كالبهائم الحائرة يهيم على وجهه ويترك هناك في قلق واضطراب.

خلعوا عليه وزينو ه ومرّ في عزّ ورفعة
وكذاك يفعلُ بالجزو رلنحرها في كل جمعة

وهنا يطرق الملك برأسه متأملاً يبحث عن حل للمشكلة ويرى أن الحل الوحيد هو الاستعانة بهذا الشخص الذى دلّه على الأمر واختيار مجموعة كبيرة من الصناع فى تلك الديار وإيفادهم إلى تلك الصحراء لإنشاء العمارات الكثيرة فيها وتوفير ما يتطلبه الإنسان للعيش وإعمار أراضي الصحراء بإيصال المياه إليها حتى يتمكن من مواصلة حكمه على الناس فى الصحراء بكل راحة وهدوء عندما يتم عزله من ملكه إذ إن تلك الصحراء تكون قد تحولت إلى أرض عامرة.

لقد انقضى عام على ملكه وانتهى حكمه: «فى ذلك اليوم الذى كان يصادف نهاية السنة اجتمع الناس بباب القصر كعادتهم لعزله من العرش ... وأخيراً أخذوه وأجلسوه فى السفينة وأوصلوه عبر البحر إلى الصحراء. عند ذلك قدم الخادومون المستعدون لاستقباله والذين كانوا يترقبون قدومه واستقبلوه فنزل بذلك المكان مرتاح البال قرير العين ليلبغ السعادة فى متنزهات تلك الديار.» (المصدر نفسه: ١١٨)

وفى نهاية الحكاية نجد القاص يستنتج منها نتيجة تمثيلية معتقداً أن لهذه القصة بعداً تمثيلاً وأن رمز هذه الأسطورة موضوع تربوى إذ إنها تعظ الإنسان بأن الدنيا مزرعة الآخرة وأن الفائز هو من لا ينشغل بملذات الدنيا ويعلم أن أفراح هذه الدنيا عابرة فهو يعمل بكل ذكاء على إعمار آخرته.

«والآن أيها الأولاد استعموا وركزوا على تفهم رمز هذه الحكاية واعلموا أن ذلك الغلام الذى جلس فى السفينة هو كالطفل داخل الجنين ... وأن غرق تلك السفينة والوصول إلى تلك الجزيرة وبلوغ المدينة واستقبال جماعة من الناس له إشارة إلى المشيمة التى هى مقر الطفل فى بطن الأم عند الوضع ... فعندما يأتى الإنسان إلى هذا العالم يقوم بتربيته ... الكثيرون من الوالدين والمرضعات ... إذا كان من نصيبه بلوغ السعادة السرمدية ... كما كان من نصيب ذلك العبد فإنه سيفكر ملياً بأن على الذهاب يوماً من هذا المكان ... فلا يفتأ يعمل جاهداً لبناء المنزل الذى سيحتاج إليه فى الدار الآخرة ولا يدخر جهداً لذلك ويعمل على تقديم ذخائر السعادة الأبدية إلى أن يحين أجله ويؤخذ من دار الفرار ... إلى تلك الصحراء التى هى عبارة عن الآخرة.» (المصدر

أجزاء الحكاية وأحداثها

تنقسم هذه الحكاية إلى قسمين ومجموعة من الأحداث في كل قسم وهي قابلة للتفسير في موضعها.

القسم الأول

١. هناك عبد أبحر بعيداً عن وطنه ٢. تنهدم سفينته ويتمكن هو بكل جهد من الوصول إلى جزيرة ٣. إن الجزيرة خضراء مليئة بغابات النخيل ٤. يستقبله أناس بحفاوة ويختارونه ملكاً عليهم ٥. يتم عزف الناي والطبول والمزامير عند استقبالهم له ٦. إنهم ينوون قتله بعد عام من الحكم ٧. يأخذ الناس إلى ذلك البحر وعبره يتم نقله إلى صحراء قاحلة ويتركونه هناك ليقتل ويبحثون عن ملك جديد ٨. يطلع العبد بذكائه على القصة ويفكر في حل ينتهي إلى نجاته.

القسم الثاني

١. يقوم القاص بعد نهاية القصة بتقديم تفسير عنها.
٢. إن تفسيره تمثيلي يستفيد فيه من معرفة علاقة الشبه وبعبارة أخرى فإنه يرى القصة كلها تشبيهاً تمثيلاً ٣. إن تشبيه التمثيل هذا يتم توظيفه في خدمة موضوع ديني مهم أخلاقي يتأسس على الفكرة المشهورة القائلة بأن الدنيا مزرعة الآخرة وهنا نورد بعض التفسيرات حول أحداث هذه القصة.

وجوب قتل الملك

لقد مر آنفاً أن الملك أو الإنسان - الرب هو مندوب الروح النباتية أو رب الغلات المصدر نفسه فعلى أساس قانون السحر الهوميوباتيكي فإن قتله واختيار خليفة له عامل من عوامل تغيير الفصول وقدم الربيع ونمو النباتات ولكن السؤال الذي يطرح المصدر نفسه هو أنه لماذا على ملك الطبيعة هذا أن يقتل؟ لماذا لا يترك ليموت ميتة طبيعية ليخلفه شخص آخر؟ لقد كان الجواب الذي توصل إليه فريزر عبر دراسة القرائن الكثيرة التي حصل عليها حول هذا التقليد في أماكن متعددة من الأرض هو أن

قتل الملك كان محاولة لمنع نقص الخصب والقدرة على الولادة. لا بد من قتل الملوك في ذروة الشباب والصحة والقوة لتنتقل قواهم قبل الضعف إلى شخص أكثر شباباً وقوة. «إن البشر البدائيين كانوا يعتقدون أن صحتهم بل وصحة العالم مرتبطتان بالإنسان- الرب هذا أو التجسيد الألوهي عبر الإنسان. لذلك فإنهم كانوا يراقبون صحته لأجل صحتهم. غير أن أية دقة مهما كانت كبيرة لن تتمكن من منع الشيخوخة والضعف والموت للإنسان- الرب. فإذا مات الإنسان- الرب ميتة طبيعية فإن ذلك يعني عند البدائيين أن روحه قد تركت الجسم بإرادتها ولن تعود بعد ذلك أو المعتقد الأكثر رواجاً هو أن الشيطان أو الساحر هما اللذان أخرجاها من جسده وجعلها حائرة على أقل تقدير. كما أن الموت الناجم عن المرض يعني أن الروح تكون قد تركت الجسم في أسوأ مراحل الضعف الجسدي فإذا انتقلت إلى جسد جديد فإنها ستراققه بالضعف والفتور لتواصل حياتها على هذه الحالة بينما كان اعتقاد الناس يقضى بأن قتله يضمن لهم في المرحلة الأولى السيطرة على روحه عند الهروب ويمكنهم نقلها إلى خليفة مناسب وفي المرحلة الثانية فإن قتلهم له يعني أنهم سبقوا ضعف قواه الطبيعية مما يعني أن زوال الإنسان- الرب لا يؤدي إلى زوال العالم.» (فريزر، ٢٠١٣م: ٢٩٥)

إن الاعتقاد السائد هو أن الروح النباتية يجب ألا تموت وألا يدركها الضعف والبلى لذلك فإن الإنسان- الرب مادام قادراً على أداء واجباته الخطيرة فإنه يجب أن يبقى على مسؤوليته.

لقد أثبتت دراسات فريزر أن تحديد الأقوام البدائية للزمن الذي تنتهي فيه صلاحية الإنسان- الرب لمواصلة الحكم كان مختلفاً. فهناك من كانوا يقتلونه بمجرد ظهور الشعرة البيضاء الأولى على رأسه وكان البعض الآخر منهم لا يقتلونه مادام قادراً على الدفاع عن المصدر نفسه وعندما كان يظهر شخص قادر على قتله فإن منصبه كان يتحول إلى قاتله. غير أن أكثر النماذج تشير إلى فترة محدودة من الحكم للملك. إن الزمن المحدد هو ذلك الزمن الذي كان يعتقد الإنسان البدائي أن القدرة على حفظ الروح الإلهية في وجود الإنسان- الرب أو الرب- الملك ممكنة حتى نهايتها. ويبدو أن تحديدهم لهذا الزمن الخاص حسب معتقداتهم مرتبط بفترة زمنية لدورة من الكمال في الحياة.

«إن الملك أو الكاهن السماوى مجبر على البقاء على الحكم إلى الوقت الذى يظهر فيه نقص جسدى فى ظاهره أو علامة ظاهرة من الضعف والمرض أو الشيخوخة. إن ظهور أى ضعف إشعار بأنه لم يعد قادراً على أداء مهامه الإلهية. و يبدو أن بعض الأقوام كانت لا تنتظر ظهور أمارات الضعف والشيخوخة وكانت تفضل قتل الملك عند قدرته وفى ذروة حيويته. لذا فقد كانت حددت فترة لم يكن فيها الملك ممنوعاً من مواصلة الحكم وكان لابد من قتله. لقد كانت هذه الفترة فى بعض المناطق جنوبى الهند تستمر لمدة ١٢ عاماً.

وفى العصور السحيقة ما قبل التاريخ كان ملوك بابل وأسلافهم المتوحشة بعد انتهاء عام واحد من الحكم يتخلون عن الملك وعن حياتهم بالكامل.» (المصدر نفسه: ٣٠٥-٣١٢) إن أبسط تعليل لتحديد فترة عام واحد هو الإشارة إلى أكثر التعليقات انسجاماً مع الطبيعة وهى نهاية دورة كمال للفصول الأربعة. كما أن معتقدات البشر البدائيين حول العدد ١٢ جديرة بالاهتمام. فهو العدد الذى يتميز بالتقديس على خلاف العدد الذى يليه. «لقد كان العدّ فى بداية الأمر يتم عبر أصابع اليد ومن هنا ظهرت الأعشار. فعندما استطاع الإنسان فهم معنى العدد ١٢- ولعله كان بحاجة إلى فترة من الزمن للوصول إلى ذلك- أدركه الكثير من السرور إذ إنه وجد عدداً قابلاً للقسمة على خمسة إلى ستة من الأعداد الأولى وبذلك دخلت الأعشار منذ ذلك الحين مبنية على العدد ١٢ فى الحساب. إن العدد ١٣ ليس قابلاً للقسمة على أى عدد خلافاً للعدد الذى يسبقه ولذلك فقد تشاءم به الناس وكرهوه.» (دورانت، ٢٠١٣م: ١/٩٦)

تتويج شخص غريب ملكاً

لقد كان مفهوم الملك الممزوج بمفهوم الرب يضع على عاتق الملك مسؤوليات صعبة ومنهكة فلم يكن الملك مستبداً بالمفهوم الذى نعرفه اليوم إذ كان الملك يعيش لأجل ديومة حياة الكائنات الحية وكان يحتاج إلى المراقبة الدقيقة إذ إن قدرته على التصرف فى الكون والطبيعة كانت تتطلب منه أن يخضع جميع تصرفاته للمراقبة الشديدة. «إن أى تصرف للملك -حركة رأسه- أو رفع يده- كان يترك تأثيراً على الطبيعة وكان

من الممكن أن يثيرها.» (فريزر، ٢٠١٣م: ٢١٥) لذا فإن جميع أعماله وحركاته كانت تخضع للحظر الشديد وكان هذا الحظر على حركاته تتم مراقبته بشكل جاد بواسطة عابديه ومن كانوا يراقبونه بصورة مشددة. فهو كان ممنوعاً من وضع رجله على الأرض كما كان محظوراً عليه أن يرى أو يرى ومن ذلك منع -إشراق الشمس على رأسه- منع حلق لحيته أو ظفره منع النوم ومنع الملامسة أو منع ملامسة أحد إياه و ... إن هذه الأنواع المتعددة من الحظر هي ما يصفه فرويد بمحرمات الملك. «إن محرمات المراسم الحكومية في ظاهرها تعكس تجليات أعمق الاحترامات كوسيلة لتوفير الأمن الكامل للحاكم غير أنها في واقع الأمر عقاب يتحملة الحاكم لعلو شأنه. إن شدة وقسوة أحكام المحرمات قد أدت إلى نتيجة مهمة تاريخياً وهي أن الرغبة في بلوغ الحكم قد زالت بالكامل.» (فرويد، ١٩٧٢م: ٧٣) إن عدم الرغبة هذا الذي أدى إلى زوال الحياة تحول إلى عامل فيما بعد ليتم تنصيب الملك رغم إرادته ويفرض عليه هذا المنصب فرضاً.

«في بعض القبائل الأفريقية كانوا يلقون القبض على من يريدون تعيينه كخليفة للسلطان أو يربطونه بالحبال ويراقبونه في دار الأصنام ويستمرون في حبسه حتى يعلن عن استعداده لقبول هذا المنصب ويعترف به.» (المصدر نفسه: ٦٨) وكانت إحدى الحلول تعيين الغرباء والأجانب ومن لا يعرفهم أحد لهذا المنصب. «كان الملوك الأوائل من الأجانب الذين يتم تقديمهم كقرايين للآلهة في احتفالات ضخمة بعد فترة قصيرة من الحكم. إن الامتناع عن قبول منصب السلطان كان يتبعه عقاب شديد جداً مما أدى إلى أن تقبل أكثر القبائل بتسليمه إلى الأجانب.» (المصدر نفسه: ٧٤-٦٨) «لقد صور سرفانتس في روايته "دون كيخوتي" حال إنسان غريب غافل عن كل شيء يجد المصدر نفسه فجأة في مواجهة القدر ويصبح ملكاً ومن ثم كان يتعرض لأسوأ الأحداث وأكبر المشاق والصعاب التي عرضها في قالب فكاهي رائع.» (راجع سرفانتس، ١٩٧٠م: ٢/١٠٩٣) غير أننا نشاهد في الأساطير والقصص القسم الأول من هذه الطقوس دون ذكر نهايتها المخيفة. ففي الأساطير الإيرانية نواجه نماذج من هذا القبيل حيث إن البطل عندما يتوجه نحو مكان معين لإنجاز عمل ما في طريقة في الجبال أو الصحارى يبلغ مدينة ويختاره الناس فوراً ملكاً عليهم. «ففي منظومة "همايون" لخواجوى

كرمانى نرى أن هماغ الأسيير فى سفينة سمندون الزنجى التى تعرضت بدورها للأعاصير الشديدة مما أدى إلى غرق سمندون وأصحابه غير أنه يتمكن من الخلاص بتلك السفينة المحطمة ويبلغ جزيرة خضراء ويبدأ فيها بالسير ويواصل سيره فيها فى اليوم التالى إذ يواجه عدداً من الفرسان الذين يبحثون عن ملك لبلادهم بعد وفاة ملكهم وكان من تقاليدهم أنهم يذهبون إلى الصحراء ويختارون أول شخص يواجهونه ملكاً لبلادهم وبذلك يتحول هماغ إلى ملك لتلك البلاد.» (راجع خواجوى كرماني، ١٩٦٩م: ٤٥ -

(٤٢

تتويج العبد ملكاً

إن أسطورة حاكم مروج معبد "نمى" الذى تركزت حوله دراسات فريزر عبارة عن أسطورة كاهن فى منصب السلطان. لقد خلف هذا الكاهن الملك الذى قتله وكان من يستطيع قتله سيتحول إلى ملك أيضاً. والطريف فى الأمر أن الوحيد الذى كان يسمح له بهذا الصراع من أجل بلوغ الحكم كان عبداً هارباً. «كان يجب ألا ينكسر غضن من أغصان المعبد وكان يسمح لعبد هارب فقط بكسر أحد الأغصان - إذا استطاع ذلك - وكان نجاحه فى هذا الأمر سيمكّنه من أن يواجه كاهن المعبد وينازله فإذا تمكن من قتله أصبح حاكماً على تلك المروج بدله.» (فريزر، ٢٠١٣م: ٧٤)

«كما أن من كان يريد أن يصبح كاهناً فى معبد آرتميس كان عليه أن يتغلب على منافسه فى الصراع وجهاً لوجه وكان يمنع الناس من الأحرار المشاركة فيه إلا العبيد الهاربين من أسيادهم.» (المصدر نفسه: ٢٥) كان على خليفة الملك أن تتوفر لديه شروط خاصة وأن يثبت جدارته عبر اختبارات تتطلب الشجاعة والقوة القتالية التى هى من أمارات الصحة والقوة الجسدية. إن السبب فى ضرورة اجتياز الاختبارات الجسدية الصعبة واضح تماماً. كان على العابدين أن يتأكدوا من صحة ملكهم وقدراته الجسدية لأداء المسؤولية الكبيرة الملقاة على عاتقه. «إن الحكام المقدسين كانوا يمثلون المندوبين الأحياء للآلهة وكان يجب أن يقتلوا على يد رجل ذى عزيمة كبيرة والذى كان قادراً على إثبات أحقيته فى الألوهية والحكم المقدس بقوة الجسد بواسطة السيف.» (المصدر

نفسه: ٢١٢) غير أن تبرير كون القاتل عبداً هارباً يبدو أنه راجع إلى أمرين الأول مسؤولية الملك التي لم يكن أحد ليقبلها والثاني هو مفهوم الرق في العهود القديمة. لم يكن العبيد خدماً قبيحاً المنظر ضعافاً أشقياء فحسب، لقد كان المصارعون الرومان عبيداً أيضاً وكان ذلك هو السبب الذي يدفعهم إلى تحمل التدريبات الشاقة الخاصة بالقتال ونيل مهارات الدفاع الفردي وكان القانون الوحيد في حياتهم التي كانت وسيلة لترفيه الملوك الرومان هو "اقتل لكي تعيش". إن قصة سبارتاكوس خير شاهد على هذا الأمر لذا فإن أى عبد لم يكن يصلح لبلوغ منصب الكاهن لكنه كان عبداً ذا قوة جسدية عالية ومهارات قتالية خارقة وذكاء خارق أيضاً يمكنه من الهروب من مدرسة المصارعين التي كانت خاضعة للمراقبة الشديدة ولأن هذا الهروب كان يتبعه عقاب الموت إذاً فإن فترة من الحكم في أرض أخرى كانت تمثل له فرصة جديدة. إن هذا الهروب من الهلاك وتولى الحكم الطقوسى في بلاد أخرى مشهود في أسطورة ديانا أيضاً. «إن هروب العبد إعادة انعكاس لهروب "اورست" وكان صراعه مع الكاهن يرمز إلى الضحايا الذين كان يتم تقديمهم للإله "ديانا" في عصور سابقة فحسب هذه الأسطورة فإن بطلاً يدعى "اورست" سنّ عبادة "ديانا" في "نمى" فقد هرب بعد قتل الحاكم إلى إيطاليا مع شقيقته وأخذ معه إلى هناك تمثال ديانا.» (المصدر نفسه: ٧٤)

إن حكاية العبد التاجر أسطورة عبد يصبح ملكاً فهو لم يهرب غير أن ابتعاده عن أرضه يجعل سكان الجزيرة قادرين على تصور الهروب وإن لم يكن مصارعاً رومانياً غير أن اجتيازه للبحر وخلاصه من الأعاصير والعرق يثبت قدراته الجسدية فإن من يتمكن من اجتياز بحر هائج كهذا فهو قادر لا محالة على الاحتفاظ بقدرة الملك المقتدر.

اجتياز البحر

إن العبد يدخل الجزيرة عبر البحر ومن المقرر أن يقاد نحو القتل عبر البحر مرة أخرى ولا بأس هنا من الإشارة إلى البحر ووجود الساحل في تلك الأرض وهى قضية نشاهدها في القصص الأخرى المماثلة. مثل "هماى وهمايون".

إن هذه الدراسة تسعى إلى تقديم تفسير طقوسى عن هذه الحكاية ولكننا لا نرى

بأسا بإشارة إلى التفسير الرمزي لها أيضاً:

فكما ذكر القاص - وفهمه عن هذا الرمز يثير عندنا العجب - فإن تحطم السفينة والسقوط في الماء رمز الولادة والخصب وهو رمز قديم كثر استعماله في قصة داراب في شاهنامه وفي قصة موسى وكثير من القصص الأخرى. «مما لا يرقى إليه الشك هو أن وضع الطفل الرضيع في سلة، ما هو إلا عرضاً استعارياً للولادة فالسلة هنا ترمز بالمجاز إلى بطن الأم والماء هو السائل الجنيني ففي كثير من هذه التخيلات نلاحظ أن تصوير العلاقة القائمة بين الأم والأولاد يتم عرضه عبر إخراجهم من الماء أو الخلاص والنجاة منه.» (فرويد، ١٩٦٩م: ٦)

فعلى أساس التحليل الرمزي فإن اجتياز العبد للبحر يعنى عبوره من العدم إلى الحياة كما أن عودته إلى البحر يمكن أن تكون رمزاً للعودة من الحياة إلى العدم وإن الذهاب والإياب يمثلان مجموعة الولادة والموت للملك من الملوك أى دورة الموت والبعث لإله الخصب.

غير أن التحليل الطقوسي الذي تهدف الدراسة إلى معالجته وتشكل أساس تفسيرنا هنا فالسباحة واجتياز الماء وتسليم الشخص إلى الماء و... يعود مجذوره إلى السحر الهوميوباتيكي الذي يسعى إلى التأكد من مستوى هطول الأمطار وتوفير المياه للزراعة. «كان تقليد السباحة أمراً شائعاً في الشمال الأفريقي.» (فريزر، ٢٠١٣م: ٣٩٠)

كما أن تقليد السباحة كان شائعاً في إيران في يوم يدعى "آبان". كما أن مراسم طقوس "أدونيس" الذي سنتحدث عنه لاحقاً عبارة عن مراسم تقام بواسطة مفهوم الموت وبعث أدونيس عبر البحر أو النهر.

إن أدونيس الذي يرمز إلى رب الغلات والروح النباتية كانت تقام كل عام بمناسبة موته مراسم العزاء ومن ثم كانت الاحتفالات تقام مرة أخرى بسبب عودته. «كانت النساء يزين تماثيل أدونيس ويقمن بتشييعه في موكب جنائزي كأنهن يقصدن دفنه ثم كن يرمينه في البحر أو النهر ليحتفلن في اليوم التالي بعودته.» (المصدر نفسه: ٣٨٣) وفي طقوس مماثلة كان يتم إلقاء جذع شجرة في الماء بدل تمثال أدونيس. «إن الفارق بين الطقوس على الشكل الأول والثاني هو أن الثاني كانت تظهر فيه الروح النباتية

في شكل جذع الشجرة "نبات" أى في شكله الأصلي. بينما كان للروح النباتية شكل انساني في عبادة "أدونيس". إن موت أدونيس وبعثه يمثلان زوال الحياة النباتية وولادتها الجديدة.» (المصدر نفسه: ٣٩٢)

إن خروج العبد من الماء وعبوره منه نحو الصحراء للهلاك والموت يشبه إلى حد كبير قصة أدونيس فهو يمثل الموت والبعث لرب الغلات بالهدف المصدر نفسه أى هطول الأمطار وتوفير المياه الكافية للزراعة والتوسل إلى السحر الهوميوباتيكي. «لقد كان الإنسان الأولى يعتقد أن المحاكاة تترك التأثيرات التي يريد الوصول إليها لذا فإنه كان يرش الماء ويريد به الحصول على المطر ويشعل النار ويريد به إشراق الشمس كما أن محاكاته لنمو المحاصيل كانت تجعله يأمل في وفرة المحاصيل. كذلك فإن إلقاء النباتات أو التماثيل سحر يمارس للتأكد من كثرة الأمطار ووفرتها.» (المصدر نفسه: ٣٩١) كما أن الملك كان يجب أن يتمتع بقوة الخصب وإنزال المطر. "لذلك كان يدخل تلك الأرض عبر المياه" كما كان يجب قتله قبل أن تضعف قواه. وأن يعود إلى الماء مرة أخرى وذلك لضمان هطول الأمطار والزراعة المثمرة.

الناى والطبل والمزمارة

لقد تم وصف مراسم الاستقبال على النحو التالي: كان الضجيج على أشده وكانت تستخدم الطبول والمزامير والناى وكان الناس يحملون الأعلام و... كانت هذه المراسم تبدو للوهلة الأولى مراسم استقبال عسكرية، سياسية وكان يظن بأنها تجرى من فرط السرور. لقد ورد ذكر أدوات اللهو أيضاً غير أن عبارة «صوت الناي الحزين لا يتناسب مع هذه الأجواء المفعمة بالسرور أو الأجواء العسكرية. ويبدو للباحثة من خلال هذه الأسطر أن هذه الأجواء المليئة بالسرور عبارة عن أصوات تعكسها: لقد اجتمع خلق كثيرون من الرجال والنساء من المدينة وهم يحملون أدوات اللهو والفرح وأنواع وسائل التبرج والتجمل.» (الوراوينى، ٢٠٠٥م: ١٠٦) كما أنها تعكس حالة الحرب والخوف الناجمة منها «لقد ضرب زلزال المواقب الأرض ومحمة المراكب عنان السماء.» (المصدر نفسه: ١٠٦) كما أن "صوت الناي الحزين" يحدث حالة من الحزن والألم. «إن

صوت الناي الحزين وصوت الطبل والمزمار قد طنّ في آذان الفلك ...» (المصدر نفسه: ١٠٦) ترى الباحثة أن كتاب مرزبان نامه رغم كونه يتصف بالاهتمام بالمحسنات الأدبية غير أن ما تضمنته هذه الأسطر لا ينحصر على التلاعب اللفظي والأدبي فحسب بل إنه يرتبط بماهية القصة الأساسية "الموت والبعث".

إن هناك قرائن تشير إلى التشابه الموجود بين هذه الأوصاف وبين طقوس أدونيس ومراسم الحصاد في الأدوار الماضية. انظر إلى حالة النواح والإنشاد في هذا النموذج: «كان سكان الاسكندرية يرتدون ملابس العزاء في طقوس أدونيس ويشعّثون شعرهم ويعرّون صدورهم حاملين تمثال أدونيس الميت إلى شاطئ البحر ويسلمونه إلى الأمواج. غير أن نواحهم وحزنهم لم يكونا تابعين من اليأس إذ إن المنشدين كانوا يشيرون إلى الجميع بأن الإله الميت سيعود.» (فريزر، ٢٠٠٥م: ٣٨٤) إن التنائية الموجودة في هذا الكلام وكذلك صوت الناي الحزين المفعم بالألم تظهر في النص التالي أيضا: «كان الفينيقيون يقيمون الحداد على موت أدونيس في كل عام بصوت الناي الحزين والبكاء والمآتم والطم على الصدور ولكنهم كانوا يعتقدون بأنه سيعود غداً حياً.» (المصدر نفسه: ٣٨٤)

أما الشواهد الأخرى فتأتى من مراسم خاصة بالحصاد إذ نشاهد فيها النواح بينما ليس هذا الموسم موسماً محزناً بل هو باعث على الفرح والسرور: «في مصر القديمة كان الحاصدون عند حصاد المحاصيل الأولى الزراعية يتوحون داعين الإله الذى كانوا يعتبرونه السبب في اختراع الغلات وكانوا يعتبرون المصدر أنفسهم مدينين له. كما كان الفينيقيون وسكان غربي آسيا ينشدون غناء محزناً عند قطف العنب.» (المصدر نفسه: ٤٨٣) وفي النهاية فإن هذا الضجيج والأصوات والأعلام التي تم ذكرها في هذه الحكاية يمكن أن تقارن بالنموذج الآتي: «إن السكان المحليين في مكسيكو يضربون بأكفهم على شفاههم ويضجّون ويربطون مناديل حمراء كالأعلام على العصى ويحملونها وذلك في موسم الحصاد أو عند حرث الأرض.» (المصدر نفسه: ٤٨٩)

نود هنا الإشارة إلى هذه التنائية الموجودة بين الخوف والأمل والفرح والحزن الذى نشاهدها في هذه المراسم علنا نجد ارتباطا بينها وبين الأوصاف التي ورد ذكرها

في مرزبان نامه عن مراسم الاستقبال لتقوم بتفسيرها جميعاً على محور الماهية العامة للاعتقادات الخاصة بالموت والبعث والروح النباتية وبتجسيدها في القتل وخلافة الملك. كانوا يقيمون الحداد على الملك الميت ويفرحون مستقبليين الملك الجديد كما أنهم كانوا يعتقدون عند موسم الحصاد وإجراء طقوس أدونيس أن روح الغلات هي التي تموت وتبعث من جديد.

«إن روح الغلات تقتل في كل عام عند مكان درس المحصول وفي موسم الحصاد إن النواح على أدونيس كان في أساسه نوعاً من طقوس الحصاد التي كانت تقام لجلب عناية رب الغلات.» (المصدر نفسه: ٤٩٧-٣٨٨)

إن بالإمكان أن نضيف تبريرين آخرين لمراسم الاستقبال هذه: إن التبرير الأول هو مراقبة روح الغلات وتوجيهها. لقد كانت معتقدات الإنسان البدائي حول الأرواح مبنية على الخوف والهلع الشديدين الناجمين عن محرمات الأموات. فهو كان يعتقد أن الروح معرضة لأخطار مخيفة. إذ من الممكن أن تغادر الروح الجسد وألا تعود إليه. كما أن من الممكن أن تخضع لسيطرة الشيطان أو الأرواح الحبيثة الأخرى وقد تضيع وتختار و ... لذا فإن من الضروري توجيه الروح ومراقبتها بواسطة السحر، كان اعتقادهم يقضى بأن الصراخ والعويل والضجيج والأناشيد والأغاني وربط الميت بالحبال عند الموت بإمكانه أن يوجه الروح نحو المكان الذي يجب أن تتجه نحوه.

لذلك فليس من المستبعد أن نتصور أن روح الغلات عند قتل الملك تحتاج إلى المراقبة والتوجيه للاستقرار في مكانه الآمن الخاص به للبعث المجدد إذ يجب أن تكون بعيدة عن الضياع.

«أ» لأجل إعادة الروح الحائرة" كان ينتجه جمع غفير من الرجال والنساء إلى الجبّانة وكان الرجال يعزفون الناي هناك، أما النساء فكانن يصفرن في محاولة لإعادة الروح الحائرة ويوجهونها بالضرب على أكفهن.» (المصدر نفسه: ٢٣٥) كما أن على روح الغلات أن تبقى بعيدة عن سيطرة الأرواح الشيطانية وتسخيرها. «إن تنفير الروح بالصراخ والضجيج أسلوب سحري.» (برويد، لاتا: ١٩)

أما التبرير الثاني فيتم عبر السحر الهوميوباتيكي. إن محاكاة الرعد والبرق عامل

من عوامل هطول الأمطار كما أن صوت المزامير والطبول و ... يدفع الفلك إلى إيجاد الرعد والبرق وهطول الأمطار.

النخيل

إن ارتباط النخيل بالحضرة والنضارة في الأرض المقصودة قابل للفهم إزاء الزراعة والتبرير النباتي الذي هو محور هذه الحكاية. غير أن الإشارة إلى اسم النخيل بين هذه النباتات بشكل خاص لا يخلو من الارتباط بينها وبين الموقع الجغرافي الذي ظهرت فيه فكرة الموت والبعث والروح النباتية وطقوس قتل الملك. «كانت الضحية الجديدة التي يتم اختيارها للعام التالي يعبد كظهور مجدد للضحية السابقة في الطقوس البدائية. وكانت هذه العقيدة بسبب المقارنة والتشبيه بينه وبين الربيع حيث كان إله الأرض يبعث بعد موت خريفى مرة أخرى لقد كانت أسطورة الموت والبعث للإله على شاكلة الإنسان جزءاً لا يتجزأ من جميع الأديان في غرب آسية والشمال الشرقي للقارة الأفريقية.» (دورانت، ١٩٧٠م: ٤١٧) «ويبدو أن التضحية أو بتعبير آخر تضحية الإله بالمصدر نفسه في كل عام كانت من ميزات المذاهب السامية.» (فرويد، ١٩٧٢م: ٢٠٦)

بالإضافة إلى ما مرّ فإن طقوس أدونيس التي تعتبر تجسيداً لهذا المعتقد في قالب الأسطورة تعد شاهدة على ذلك. «إن أدونيس في الأساطير اليونانية هو معشوق أفرودينه فبعد موته وافقت الآلهة على أن يبعث ستة أشهر من السنة وذلك بإصرار من أفرودينه. لذلك فقد كان اليونان يحتفلون سنوياً في احتفالات أدونيا بموته وبعثه اللذين يرمزان إلى موت الطبيعة وحياته السنوية.» (مصاحب، ٢٠٠٢م: كلمة أدونيس) «ويبدو أن هذه الطقوس كانت تقام في الأراضي الواقعة شرقي البحر الأبيض المتوسط أكبر وأضخم من أي مكان آخر. كانت الشعوب في مصر وفي غربي آسية يقيمون الاحتفالات بزوال الحياة وبعثها سنوياً بتجسيم إله كان يموت في كل عام ويحيا من جديد وذلك تحت أسماء من مثل ازيريس وتموز وأدونيس وآتيس كانت أسماء هذه الطقوس وتفاصيلها مختلفة عن بعضها البعض من مكان إلى آخر غير أن ثيماتها وموضوعاتها الأصلية كانت واحدة.» (فريزر، ٢٠١٣م: ٣٥٩) والمهم أن نعلم «أن أدونيس كان معبود الشعوب

في بابل وفي سوريا واستعارها لليونان منهم في القرن السابع قبل الميلاد. غير أن هناك قرائن تشير إلى أن عبادة أدونيس قد ظهرت لأول مرة بين السومريين.» (المصدر نفسه: ٣٥٩) ولا يخفى ما بين هذه البلاد والنخيل من ارتباط وثيق. ونكتفى هنا بالإشارة إلى أن أنشودة شجرة آسوريك التي هي من الآثار الباقية من إيران ما قبل الإسلام عبارة عن مناظرة جرت بين ماعز ونخله وكان الماعز يمثل المجتمع المعتمد على تربية المواشى حسب رأى بعض الباحثين كما أن النخلة كانت تمثل المجتمع الزراعي.

إنقاذ العبد

ترى الباحثة أن تبرير وتفسير حكاية العبد التاجر يتطلبان النظر إليها من ثلاثة منطلقات. الأول النظر إلى القصة من منطلق الأرض التي يغادرها العبد ويدخل في قضايا وردت تفاصيلها في الحكاية وتسمى الباحثة هذه الأرض "أرض البطولة".
الثاني النظر إلى القصة من منطلق الأرض التي يدخلها العبد وتسميها الباحثة "أرض الضحية".

والثالث النظر إلى القصة من منطلق وجهة نظر الراوي الذي ينظر إليها بعد مضي زمن طويل ويقوم بتفسير أحداثها وتطلق الباحثة عليها اسم أرض الراوي.
يتسنى تفسير وتبرير الأحداث الواقعة في أرض الضحية عبر التفسير الطقوسي كما أن تبرير أحداث أرض البطولة ممكن بتفسير رمزي لها أما تفسير أحداث أرض الراوي فممكن من خلال تفسيرها التمثيلي.

وجهة النظر من منطلق أرض الضحية

لقد قدم غريب عبر المياه إلى هذه الأرض ويبدو من ملاحظه بأنه رب الغلات وملك الطبيعة ويحمل معه روح الملك السابق الذي تم إطلاق روحه من جسده قبل وصول هذا الغريب لذا فإن على الجميع إكرام هذا الملك ومراقبته ليحفظ الروح النباتية والقوة الملكية معه وعندما يحين موعد نقل الروح فإن الملك العزيز سيقدم ضحية. حتى تنتقل روحه في صحة دون أى إنهاك أو تعب إلى جسد آخر وتواصل حياتها هناك.

ولكى يتم ضمان هطول الأمطار فإن التضحية تجرى عبر البحر ويسلم الضحية إلى البحر. هذه هي الأحداث من منظور الأرض التي نزل إليها العبد وهي أرض الضحية. أما النظر إلى القصة من منطلق أرض البطولة: يغادر البطل مدينته ويتعد عنها ويواجه في طريقه الأخطار التي تحرق به حيث يتمكن بقوته الجسدية من الخلاص عن الغرق ويدخل أرضاً غريبة ويشاهد فيها أناساً عجيبين بسلوك يبدو له غير مفهوم حيث يولّونه ملكاً عليهم أولاً ويريدون قتله بعد ذلك بفترة وجيزة.

عندما يدرك العبد هذه المسألة بذكائه الخارق يرى المصدر نفسه في معرض الهلاك وينقذ المصدر نفسه هذه المرة من الموت المحتم بتدبير الأمر وحزمه غير معتمد على قوته الجسدية حيث يعتمد على ذكائه وعقله وأخيراً يقاد إلى أرض كان من المقرر أن يهلك فيها غير أنه بعقله قد حوّلها إلى مدينة عامرة وتخلص للمرة الثانية من الموت المحتم وأصبح ملكاً على تلك الديار.

إن تفسير الحكاية من وجهة نظر أرض البطولة تفسير رمزي وتابع لنموذج كثير المصاديق في الأساطير الإيرانية القديمة وغير الإيرانية منها. يتعد البطل عن أرضه ويصبح في نهاية المطاف ملكاً. إن ابتعاد البطل عن أرضه ووصوله إلى الملك في أرض غريبة أخرى انعكاس للنظام الاجتماعي الأباعدى أو الزواج خارج القبيلة. «إن الأباعدية أو الانتساب إلى المرأة قانون يلزم الرجل بالزواج من قبيلة غير قبيلته إن الملك رجل من قبيلة أخرى وعلى الأرجح من مدينة أخرى أو حتى من عنصر آخر. كانت بناته يبقين في المنزل وكان أولاده عندما يكبرون يخرجون نحو الآفاق وكانوا يتزوجون و يقيمون في بلاد زوجاتهم.» (المصدر نفسه: ٢٠٦) في نماذج الأساطير المتأخرة المتأثر بدورة الانتقال من الأباعدية والانتساب إلى الأم "الأقاربية أو الزواج داخل القبيلة" فإن تطوراً يحصل في مصير البطل حيث يقوم البطل الذى كان عادة ابن الملك بالاستيلاء على ابنة ملك من أرض أخرى ويعود بها إلى أرضه فيصبح ملكاً على أرض الأب وفي بعض الأحيان على أرض الأب وأرض الزوجة معاً.

إن خروج البطل من أرضه والوصول إلى الملك في أرض غير أرضه، الذى يترافق مع زواجه من ابنة الملك أحياناً يعد نموذجاً شائعاً في الأساطير الآرية القديمة حيث

تكرر بأشكال مختلفة في القصص. والنقطة المهمة هي أن وصول الأولاد إلى الحكم في أرض الأجنبي ووصول أزواج البنات إلى الحكم في أرض الأجنبي أيضاً قد شهدا نماذج كثيرة في التاريخ القديم لهذه الأقسام. «ففى أثينا وروما نجد نماذج من جلوس العرش بسبب الزواج من ابنة ملك ففى لاتيوم القديمة كانت الأسر الحاكمة ترسل أبناءها للزواج من بنات الملوك للوصول إلى الحكم في تلك البلاد. إن أكثر من فرع واحد من العنصر الآرى كان لديه مثل هذه التقاليد. ونلاحظ في كثير من الروايات اليونانية أن ابن ملك يغادر أرضه متجهاً نحو أرض بعيدة ليتزوج من ابنة الملك هناك ويبلغ الملك فيها.» (المصدر نفسه: ٢٠٨) «بذلك يبدو أن بعض الأقسام الآرية كانت ترى في مرحلة معينة من انتقالها نحو التطور الاجتماعي أن النساء وليس الرجال هن اللاتي ينقلن الدماء الملوكية. إذ كن يعتبرن قادرات على نقل الحكم في أجيال متتالية إلى رجل من قبيلة أخرى أو من بلد آخر في الغالب حيث كان يتزوج من إحدى بنات الملك وكان يحكم قوم زوجته. إن القصة المتداولة بين الناس التي تقول إن رجلاً غريباً دخل مدينة وعشق ابنة الملك وتزوجها واستطاع الحصول على نصف الحكم أو الملك كله قد تكون نتيجة وجود تقليد حقيقى في المجتمع.» (المصدر نفسه: ٢٠٩)

على أساس ما تقدم فإن بطل الحكاية التي نحن بصدها هو بطل النظام الاجتماعي الأباعدى الذى ابتعد عن أرضه وبعد اجتيازه للاختبارات الصعبة "اختبار القوتين الجسدية والعقلية" ينال الحكم في أرض أخرى. إن محاربة الأعاصير في البحر ومواجهة أناس عجيبين في الفكر والإشراف على الهلاك ... من منظور أرض البطولة يأتي جميعاً لاختبار البطل. على البطل أن يواجه مشاكل وأخطاراً جمّة في طريقه وأن يجتازها بسلام مستعيناً بشجاعته وعقله ليتم إثبات جدارته لنيل العرش. ويتدرب على الأمور الشاقة في سبيل بلوغ هذا المنصب الخطير.

إن مثل هذه الاختبارات البطولية انعكاس لاختبارات نيل العرش في العهود الماضية عندما «كان يتم نيل حق الزواج مع ابنة الملك أو الملكة والجلوس على العرش» انظر إلى هاتين الأمارتين المتعلقين بالنظام الأباعدى "من خلال إجراء مباراة." (المصدر نفسه: ٢٠٩)

خلاص العبد

ترى الباحثة أن وجهة النظر الأصلية في القصة هي وجهة نظر أرض البطولة. إن جميع أجزاء هذه الحكاية تروى لنا منذ البداية وحتى النهاية من أرض البطولة. إن البطل سيتخلص من دون شك. فعلى أساس القرائن المتعددة الموجودة فإن الملك لا يترك على حاله في طقوس قتل الملك ليموت جوعاً وعطشاً بل تتم التضحية به وبعد أن يقتل، ترش دماؤه على الأرض أو تجرى عليها ولكن بالنظر إلى رواية الحكاية جميعاً من أرض البطولة ففي طقوس أرض الضحية تضاف إلى القصة صحراء قاحلة حتى يوجد طريق للخلاص لكي تزداد القصة رمزية أيضاً. إن الصحراء هي رمز للهلاك فالبطل الذي يستطيع تحويل رمز الفساد إلى رمز الحياة وأن يحول الموت إلى الحياة لاشك في أنه يستحق الجلوس على العرش أكثر من غيره.

منطلق القصة من وجهة نظر الراوى

لقد انقضت سنوات عدة وأخفت السنوات الطويلة أسس الطقوس ومفاهيمها وتركت بقية منها في الأساطير إن الأسطورة التي نقصدها هنا انتقلت عبر الأجيال ومرت سنوات تطور العبادة المتعددة "عبادة الأرواح وعبادة الأجداد وعبادة الطوغم و... وفي كل عهد اتسمت بسمات عصره حتى وصلت إلى راوى هذه الحكاية في عهد التوحيد -الذى يتزامن مع تطور الثقافة والحضارة البشريتين- لم يكن راوى الحكاية مطلعاً على الرحلة الأسطورية التي كان يرويها وكان يظن أن لهذه الأسطورة منشداً يفكر مثله وهو يرى الجيد والقبيح كما يراه ويؤمن بما يؤمن به هو. ومن هذا المنطلق فإن ما ذكره القدامى كان بالضرورة نابعاً عن الحكمهفحاول جاهداً بأدواته المجردة والتركيز على قاعدة التشبيه أن يجد في هذه الأسطورة قضايا حكمية. فساعده ذوقه الفنى وقدرته على التصوير ودقة نظرة أن يجعل أساس حكايته مبنياً على أحد أهم الأركان الدينية التوحيدية التي ترتبت عليها أكثر المنجزات التربوية والأخلاقية على أساس تقنية التشبيه وأن يتوصل إلى نتيجة مفادها أن هذه القضية الحكمية هي الإيمان بالآخرة. ظاناً أن أسلوبها التربوى هو الاستفادة من التدريب التمثيلى. لقد خيل إلى

الراوى أنّ منشد هذه الأسطورة قد لجأ إلى الرمز لنقل أمر تربوى إلى المخاطبين واستخدم أداة التشبيه المعقدة وكانت هذه الأدوات فى ظنه فى خدمة الموعظة وقضية تربوية وهى أن «على الإنسان أن يبني الآخرة فى هذا العالم وأن يكسب السعادة الآخروية فى هذه الدار الفانية.» (وراوينى، ٢٠٠٥م: ١٠٤) إن هذه الأسطورة من منظور الراوى عبارة عن استعارات للموت والحياة الآخروية التى استطاع عقل المنشد الوقاد أن يخلق فيها علاقات التشابه وأن يضعها فى خدمة الأخلاق كواعظ ناصح.

النتيجة

إن قصة العبد التاجر أسطورة مرت بمرحلتى ما قبل التاريخ وما بعده. إن مرحلة ما قبل التاريخ هى التى حدثت فيها أحداث القصة. أما مرحلة ما بعد التاريخ فهى الفترة التى وصلت فيها الأسطورة إلى الراوى فحاول إمطة اللثام عن رموزها وأسرارها. إن المرحلة الأولى هى مرحلة الاعتقاد بالطقوس البدائية غير أن معتقدات المرحلة الثانية توحيدية. تمرّ القصة فى المرحلة الأولى بموضعين جغرافيين مختلفين لكل واحد منها نموذجها المختلف عن الآخر. فالمكان الأول يعكس النظام الاجتماعى الأباعدى ولكن المكان الثانى يمثل الطقوس المتعلقة بالموت والبعث والروح النباتية كما أنها تعكس أسطورة أدونيس. إن النموذج الأول نموذج اجتماعى شائع فى الأساطير الآرية ولكن النموذج الثانى طقوسى ويعود بجذوره إلى المعتقدات السامية. إن مقابلة النموذجين المختلفين قد خلقت فى هذه الأسطورة عقدة أسطورية. إن التحديات القصصية تظهر عادة فى الأساطير عبر مواجهة الفروق. ويمكن لهذه الفوارق أن تكون ناجمة عن الفروق بين الأرضين أو البلدين "التضاد الجغرافى" أو ناجمة عن الفوارق الموجودة بين قوميتين "التضاد القومى" كما يمكن أن تكون ناجمة عن الفوارق التى تظهر بمرور الزمن "التضاد التاريخى". حيث توجد فى قسم من الأسطورة الطقوس الخاصة بفترة زمنية معينة وفى قسم آخر منها الطقوس الخاصة بفترة أخرى حيث يخلق التضاد بين هذه الفترات العقدة القصصية. إن ارتباط نموذجين مختلفين فى الحكاية من القوميتين الآرية والسامية اللتين كانتا فى تضاد مستمر بينهما جدير بالاهتمام والعناية. يبدو أن القسم الأول من الحكاية

هو الجزء الأساسى من الأسطورة والتي تم نقلها شفويا أما القسم الثانى من الحكاية فقد أضيفت عليها بواسطة صاحب ذهن وقاد فنى ذى نزعة عظيمة متطابقة مع المنطق واستفاد منها لصالح التربية والأخلاق.

إن حسن الصدف بين ماهية هذه الأسطورة الطقوسية أى الموت والبعث وإله الطبيعة الذى يجهله الراوى بالمثل وانطباعاته التمثيلية من هذه القصة بهدف التذكير بالموت والبعث الإنسانى أمر جدير بالاهتمام أيضاً.

كذلك عندما يدرك العبد أنه سيقتل بعد سنة من الجلوس على العرش فوراً يورث بيتين يذكر فيهما "الجزور" التى هى نوع من الأضاحى أيضاً ويبدو أن هذه الصدف تدل دلالة واضحة على المشتركات الذهنية لدى البشر فى دائرة الكون.

المصادر والمراجع

- خواجهوى كرماني. (١٩٦٩م). هما وهمايون. تصحيح كمال عيني. ط ١. طهران: بنياد فرهنگ ايران.
- دورانت، ويل. (١٩٧١م). لذات فلسفه. ترجمه عباس زرياب خويي. ط ٢. طهران: فرانكلين.
- دورانت، ويل. (٢٠١٢م). تاريخ تمدن. ترجمه احمد آرام، ع. پاشايي، اميرحسين آريانيپور. ط ١٥. طهران: علمى وفرهنگى.
- رضى، هاشم. (١٩٦٤م). تاريخ اديان. ط ١. طهران: كاوه.
- سروانتس. (١٩٧٠م). دن كيشوت. ترجمه محمد قاضى. ط ٢. طهران: نيل.
- فرويد، زيگموند. (١٩٦٩م). موسى و يكتايرستى. ترجمه قاسم خاتمي. ط ١. طهران: بيروز.
- _____ (١٩٧٢م). توتم و تابو. ترجمه محمدعلى خنجي. ط ٢. طهران: كتابخانه طهورى.
- فريزر، جيمز جورج. (٢٠١٣م). شاخه زرين. ويرايش ومقدمه رابرت فريزر. ترجمه كاظم فيروزمند. ط ٣. طهران: آگاه.
- مصاحب، غلامحسين. (٢٠٠٢م). دايرة المعارف فارسى. ط ٣. طهران: امير كبير.
- وراوينى، سعدالدين. (٢٠٠٥م). مرزبان نامه. به كوشش خليل خطيب رهبر. ط ١١. طهران: صفى عليشاه.